مساهمة متصوفة خراسان في الحياة السياسية والادارية والاجتماعية

الباحث الأول:
ولاء محمود جمعة

الباحث الثاني:
أ.د. عابد براك الانصاري
جامعة سامراء- كلية التربية

الملخص:

شهدت حركة التصوف فتورا خلال النصف الأول من القرن الخامس للهجرة، وربما كان لهذا الفتور صلة بالأحداث السياسية التي شهدتها بغداد، والتي انتهت بزوال السلطة البويهية وبدء سيطرة السلاجقة بعد دخولهم بغداد عام 447هـ/1055م، كانت رحلات المتصوفة إلى بغداد في أغلبها ذات طابع علمي وديني. ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة، أصبح لمتصوفي خراسان دور فاعل، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، في الحياة السياسية ببغداد. وقد تفاوت تأثيرهم تبعا لتغير السلاطين والخلفاء، بما يتوافق مع سياسة كل سلطان أو خليفة. تمتع علماء وشيوخ التصوف الخراسانيون بمكانة كبيرة ونفوذ واسع لدى السلاطين والخلفاء، مما أدى إلى تكليفهم بعدة مهام ووظائف في الدولة، ولاسيما في المجالات الإدارية، وقد أثبت هؤلاء العلماء والشيوخ كفاءتهم في المهام الموكلة إليهم.

الكلمات المفتاحية: خراسان، التصوف، السياسة، الطوسي، القسطنطينية.

The Contribution of Khurasan Sufis to Political, Administrative, and Social Life

Wala Mahmoud Jumaa
Prof. Dr. Abed Barak Al-Ansari
University of Samarra - College of Education

Abstract:

During the first half of the 5th century AH, the Sufi movement experienced a period of stagnation, which may have been linked to the political events that took place in Baghdad. These events culminated in the decline of the Buyid dynasty and the beginning of Seljuk control following their entry into Baghdad in 447 AH/1055 AD. The Sufi pilgrimages to Baghdad during this period were mostly scientific and religious in nature. Starting from the second half of the 5th century AH,

Vol 12, Issue 39, Feb 2025
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

Khurasani Sufis began to play an active role, directly or indirectly, in the political life of Baghdad. Their influence varied depending on the succession of sultans and caliphs, aligning with the policies of each ruler. The Khurasani Sufi scholars and sheikhs enjoyed significant prestige and influence among the sultans and caliphs, which led to their being entrusted with multiple tasks and roles in the state, particularly in administrative matters. These scholars and sheikhs demonstrated great competence in the responsibilities assigned to them.

Keywords: Khurasan, Sufism, Politics, Al-Tusi, Constantinople.

المقدمة:

لم يلق التصوف اهتماما من الخلفاء العباسيين إلا بعد النصف الثاني من القرن الخامس إذ كان يعيش في عزلة اجتماعية ليس لها أثر جلي في الحياة العامة وما أن دخل السلاجقة إلى بغداد (447هـ/1055م) حتى تهيأ للعلماء من شيوخ التصوف الذين وفدوا إلى بغداد مجال واسع للتأثير على مجمل الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية.

إن دراسة دور متصوفة خراسان في الحياة العامة ببغداد تمهد لفهم تطور حركة التصوف في القرون التالية في البلدان الإسلامية، ويمهد لفهم الدور الذي قام به شيوخ التصوف من العلماء والفقهاء في بغداد، ويزيد من أهمية الدراسة ما يمكن أن يقال إن التصوف صبغ المجتمعات الإسلامية بصبغته الخاصة ولمدة غير قصيرة فقد كانت خراسان مركزا من مراكز الإشعاع الفكري والحضاري وأنجبت واحتضنت الكثير من العلماء والمشايخ الذين تفرغوا للرحلة في طلب العلم والدراسة والتدريس فاهتموا بمجالس الإملاء والمناظرات.

وكان التصوف محل اهتمام الباحثين والدارسين قديما وحديثا وزخرت المكتبات بآلاف الكتب والدراسات في مختلف موضوعات التصوف، إلا أنه –على حد علمي– لم يلق موضوع الدراسة باهتمام كاف من الباحثين بل ربما لم يكرس أحد منهم بحثا وافيا لهذا الموضوع، وعلى الرغم من أهمية دراسة دور متصوفة خراسان في الحياة العامة ببغداد وأثره على المجتمع إلا أن أغلب الدراسات توجهت نحو دراسة التصوف في بلد دون آخر، ومن أمثلة **الدراسات السابقة:**

1) علماء خراسان في بغداد وأثرهم في الحركة الفكرية للدكتورة رفاه تقي الدين، إذ ركزت دراستها على الجانب الفكري والثقافي فضلا عن أن مدة الدراسة كانت في العصر العباسي الأول.

2) متصوفة بغداد في القرن السادس للهجرة للدكتور عمر سليم التل، وقد تناول في دراسته نشأة الطرق الصوفية ودور الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ السهروردي وغيرهم من متصوفة بغداد.
3) الحركة الفكرية في إقليم خراسان للدكتورة غزوة شهاب أحمد، تناولت فيه الحياة الفكرية في العصر العباسي الأول.
4) خراسان في العصر الغزنوي للدكتور محمد حسين العمادي، تناول فيه الحياة العامة في خراسان.
5) دراسات في التصوف الإسلامي (شخصيات ومذاهب) للدكتور محمد جلال شرف، تكلم فيه عن خصائص الحياة الروحية والطريق إلى التصوف الإسلامي الذي اشتهر فيه متصوفة بغداد وبين ميزة كل صوفي.

اولا–مساهمتهم في السياسية:

إن حركة التصوف قد شهدت فتورا خلال النصف الاول من القرن الخامس للهجرة، وربما كان لهذا صلة بالأحداث السياسية التي شهدتها بغداد والتي انتهت بزوال السلطة البويهية، وابتداء سيطرة السلاجقة و دخولهم الى بغداد سنة (447هـ/1055م) (الذهبي، 2003م، 42/29) فكانت رحلات المتصوفة الى بغداد اغلبها رحلات علمية ودينية، ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة كان لمتصوفة خراسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة دور فاعل في الحياة السياسية في بغداد، وقد تباين دورهم وحدة تأثيرهم مع تعاقب السلاطين والخلفاء بالشكل والصيغة التي تنسجم وسياسة كل سلطان وخليفة (ابن خلدون، 1979م، 578/3).

حظي علماء وشيوخ التصوف الخراسانيين بمكانة كبيرة ونفوذ واسع لدى السلاطين والخلفاء، وبناء على هذه المكانة اوكل إليهم مهاما واعباء ووظائف عدة في الدولة ومفاصلها الادارية، اقتضت هذه الوظائف أن يتولاها علماء وشيوخ اجلاء وقد اثبتوا جدارتهم في المهام التي اوكلت إليهم (ابن تغري بردي، (د.ت)، 5/129–132).

ويمكن القول إن أبرز من شغل منصبا مهما في الدولة وكان له دور في هذا الجانب هو : **الوزير نظام الملك أبو علي الحسين بن إسحاق الطوسي (ت،485هـ/1092م)** (ابن الجوزي، 1992م، 86/16).

لم يكن نظام الملك سياسيا وصاحب قلم بارع فحسب بل كان من فقهاء الشافعية الاشعرية وذا خبرة واطلاع على أكثر العلوم، واستطاع أن يكسب نفوذا واحتراما كبيرا في الاوساط الدينية، بما كان يتحلى به من روح دينية ومذهبية وبمرافقته واحترامه للزهاد والعلماء والشيوخ ومعاشرتهم

والاختلاط بهم واعتقاده الكبير بشيوخ التصوف عد مريدا لأبي سعيد بن ابي الخير الصوفي النيسابوري (الطوسي، 2007م، ص207).

ومما يدل على ذلك هو حسن سيرته وطريقة سلوكه إذ قال ابن الجوزي فيه: ((كان للنظام من المكرمات ما لا يحصى كلما سمع الأذان أمسك عما هو فيه، وكان يراعي أوقات الصلوات، ويصوم الاثنين والخميس، ويكثر الصدقة، وكان له الحلم والوقار وأحسن خلاله مراعاة العلماء، وتربية العلم، وبناء المدارس والمساجد والرباطات والوقوف عليها، وأثره العجيب ببغداد هذه المدرسة وسقوفها الموقوف عليها، حدث بمرو، ونيسابور، والري، وأصبهان، وبغداد، وأملى في جامع المهدي، وفي مدرسته، وكان يقول: إني لأعلم أني لست أهلا للرواية، ولكني أريد أن أربط نفسي على قطار النقلة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم)) (ابن الجوزي، 1992م، 304/16).

وكان نظام الملك يقول: ((كنت أتمنى أن يكون لي قرية ومسجد أتخلى فيه بطاعة ربي، ثم تمنيت بعد ذلك قطعة من الأرض بشربها أقوت برفعها، وأتخلى في مسجد في جبل، ثم الآن أتمنى أن يكون لي رغيف كل يوم وأتعبد في مسجد)) (ابن الجوزي، 1992م، 304/16)

وكان له دور فاعل في السياسة فقد حظي بمكانة عظيمة لدى السلاطين السلاجقة طول مدة وزارته فكان الوزير القدير والمساعد الاول لألب ارسلان (ابن الجوزي، 1992م، 144/16)، وملكشاه ثلاثين سنة (455-485هـ/1063-1189م) وقد كانا من أعظم سلاطين السلاجقة وكانا يطيعان اراءه ويقران تصرفاته ولم يكن خلفاء بني العباس في الغالب يميلون عن رغبته وارادته، واما ملوك الاطراف فكانوا يضعون كتبه ورسائله على رؤوسهم ويعدون ارتداء خلعته شرفا لهم (الطوسي، 2007م، ص18)

ومن دوره أنه قاد الجيوش وفتح الله على يده الفتح الذي اعز به الاسلام بباب منازجرد (ملاذ كرد) (ابن الاثير، 1997م، 185/8)، سنة (463هـ/1070م) وفتح بذلك الفتح نحوا من مئتي مدينة حتى صار الثغر على باب القسطنطينية(ابن العمراني، 2001م، ص200).

لقب نظام الملك بتاج الحضرتين؛ لأنه وزير لسلطانيين ومنح من دار الخلافة لقب (رضى امير المؤمنين) في حين أن الخلفاء لم يمنحوا لقبا لأي وزير غيره(الطوسي، 2007م، ص19).

ومن دوره السياسي ببغداد قدم اليها سنة (479هـ/1086م) برفقة السلطان ملكشاه وأشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة في الداخل والخارج واستطاع بحسن سياسته ودقة تدبيره أن يجعل الامور منتظمة في جميع انحاء الدولة وكان له الكثير من المواقف مع الخليفة العباسي وله سلطة كبيرة عليه فقد كان يتولى تعيين وعزل الوزراء للخلفاء(ابن الاثير، 1997م، 310/8).

فقد ذكرت المصادر أنه هو من قام بعزل وزير الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله (467-487هـ/1075-1094م) ظهير الدين ابي شجاع محمد بن الحسين الروذراوري (ت 488هـ/1046م) (ابن العمراني، 2001م ، ج1، ص202)، وعين مكانه عميد الدولة ابا منصور علي بن محمد بن جهير (ت 508هـ/1114م) (ابن العمراني، 2001م، 1/ 315)

وكان لوجود الوزير نظام الملك في بغداد دور كبير في دفع تيار التصوف ونشره، حيث استقدم شيوخ التصوف من خراسان وقربهم منه وكانوا محط انظاره ومورد عنايته وكان ينفق عليهم سنويا ويهتم بإيجاد ربطهم فزادت مكانته واهميته لدى المسلمين عامة والمتصوفة خاصة (الطوسي، 2007م، ص20) .

عمل نظام الملك على ربط المناصب الادارية بالسياسة فكان شيوخ التصوف على صلة رسمية بالدولة ومن ذلك:

أنه كلف الشيخ يعقوب ابا اسحاق الشيرازي (476هـ/1083م) بالنيابة عنه في تولي بناء المدرسة النظامية (459هـ/1066م) في بغداد وتولى التدريس فيها حتى وفاته (476هـ/1083م) ومن هنا بدأ النشاط الصوفي يندمج مع سياسة الدولة حيث كان تعيين مدرسيها بأمر من السلطنة السلجوقية، فاستقدمت الكثير من الشيوخ والعلماء والفقهاء للتدريس فيها(السبكي، 1992م، ج3، ص312)

واحتضنت المدرسة النظامية الكثير من شيوخ التصوف ومن أبرز من درس فيها الامام ابو حامد الغزالي (ت،505هـ/1111م)، وأخوه ابو الفتوح احمد الغزالي (ت 520هـ/1126م) وغيرهم كثير(ابن المستوفي، 1980م، 33/1).

ومن دورهم في السياسة أنهم شغلوا المناصب المهمة في الدولة ألا وهي السفارات أو (الترسل) فقد كان الخلفاء ينفذون شيوخ وعلماء التصوف كمبعوثين وسفراء الى ملوك وامراء الاطراف وسلاطين الدول، لما كان لهم من صفات تؤهلهم لمثل هذه المهمة ومن ذلك: أن الخليفة المقتدي بأمر الله (467-487هـ/1075-1094م) بعث أبا إسحاق الشيرازي (ت: 476هـ/1083) الى السلطان ملك شاه، وحمله رسالة تتضمن الشكوى من العميد أبي الفتح بن أبي الليث (ابن العمراني، 2001م ، ص203)[1] .

وأمره أن ينهي ما يجري على البلاد من النظارة وكان في صحبته من أكابر تلامذته مثل: ابي بكر الشاشي وغيره، وكان للشيخ ابي اسحاق مكانه كبيرة عند اهل خراسان، فكلما مر على

([1]) احمد بن محمد العميد ابو الفتح كان كاتبا عالما بأمور الوزارة والسياسة واسباب الامر والنهي والرياسة، إلا أنه تزهد وترك ما كان عليه ابن الفوطي، (ابن العمراني، 2001م، ص203)

بلدة خرج أهلها يتلقونه بأولادهم ونسائهم، يتبركون به ويتمسحون بركابه، وربما أخذوا من تراب حافر بغلته (ابن الاثير، 1997م، ج 10، ص125).

وممن أرسل في السفارات ايضا القاضي أبو سعد محمد بن نصر بن منصور الهروي(ت،519هـ/1125م): الذي كان له مكانة كبيرة عند السلاجقة والخلفاء لمروءته، أرسله الخليفة المسترشد بالله (513-529هـ/1119-1134م) الى السلطان سنجر في خراسان، إلا أنه عند عودته قتل على يد الباطنية من تلك السنة(ابن الاثير، 1997م، ج8، ص701).

وفي عهد الخليفة المقتفي لأمر الله(530-555هـ/1136-1160م) انتخب الشيخ الواعظ الزاهد المظفر بن اردشير ابو منصور العبادي (ت،547هـ/1152م) (الذهبي، 2003م، ج41، ص251)، لتولي حمل رسالته الى السلطان محمد بن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بدر الحويزي ونجح فيما اوكل اليه(ابن الاثير، 1997م، ج9، ص182).

وفي عهد الخليفة الناصر لدين الله (622-575هـ/1225-1179م) كان للصوفية شأن اخر فقد قربهم اليه وتأثر بهم وكان يتبرك بشيوخهم لدرجة أنه عزم على ترك الخلافة والاقبال على التصوف والانقطاع للتعبد، فكتب بذلك توقيعا قرئ على الاعيان، واتخذ بجانب رباطه دارا لنفسه كان يتردد إليها، ويحادث الصوفية وعمل له ثيابا كثيرة بزي الصوفية(الذهبي، 2003م، 92/45).

فضلا عن أنه عمر المساجد والربط والمدارس وجالس الصوفية وقربهم اليه واستعان بهم في الترسل الى ملوك الاطراف وسلاطينها (الخطيب البغدادي، 1997م، 102/15).

وممن اوكل إليهم هذه المهمة هو شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسمعيل ابن إسمعيل ابن أبي سعد النيسابوري(ت 580هـ/1184م): وذلك لأخذ البيعة فأرسله إلى أتابك بهلوان محمد ابن أيلدكز بهمذان فبث الدعوة الهادية في تلك البلاد من أصفهان وجميع بلاد خراسان وأذربيجان (الأصبهاني، 1987، 163/5).

وفي سنة (578هـ/1182م) أرسل شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم ومعه جماعة من خواص الديوان في سفارة اخرى الى صلاح الدين الايوبي في الصلح مع صاحب الموصل ((ولقي السلطان الرسل فنزل ونزلوا وأقبل عليهم وأقبلوا ثم قدم لهم المراكب التي اعدت لهم فركبوا وسايرهم السلطان واصطحبوا ونزل صدر الدين شيخ الشيوخ بالرباط على المنيبع وبان به شرف الموضع)) (ابن شاهنشاه، (د.ت)، 6/1).

كذلك أرسل الشيخ يوسف بن أحمد بن إبراهيم، أبا يعقوب الحافظ(ت 585هـ/1189م)، شيخ الصوفية ببغداد، من الديوان الى الأطراف(الزركلي، 2002م ، 214/8).

وكان الشيخ ابو يعقوب واسع الرحلة وجال في الآفاق ما بين خراسان، وفارس، والجزيرة، والشام، والحجاز، والجبال، وسمع، أبا الحسن بن غبرة بالكوفة، وأبا الوقت السجزي بكرمان وصحبه الى بغداد، وجمع أربعين حديثا عن شيوخه من أربعين بلد وحدث بالكثير وكان صحيح الرواية ثقة، وخرج وكتب الكثير، وكان ثقة واسع الرحلة(الذهبي، 2003م، 233/41)، ولي مشيخة رباط الارجواني ببغداد، وكان حسن المفاكهة والعشرة(الخطيب البغدادي، 1997م، 372/15).

ومن المسائل السياسية المهمة في الدولة الاسلامية هي مسألة تنصيب الامام ليكون رئيسا للدولة إلا أنها في الوقت نفسه تعد مسألة دينية بحتة، حيث شرع الاسلام أن تنصيب الامام لا يتم إلا بطريقتين اولها ان تكون بمبايعة اهل الحل والعقد(القلقشندي، (د.ت)، 5/2).
والثانية تتم عن طريق ولاية العهد، فيحق للخليفة أن يقوم بتعيين أحد ابنائه بولاية العهد من بعده (السبكي، 1992م، ج8، ص110).

إن هذا الامر ادى الى أن يكون للشيوخ وعلماء التصوف دور مهم في مبايعة الخلفاء، وكان الخلفاء يتخذون اولياء عهدهم في حياتهم، مما ادى الى اقتصار امر اهل الحل والعقد بما فيهم الشيوخ والعلماء على اخذ البيعة لولي العهد الجديد(ابن الاثير، 1997م، 401/10).

وما يدل على ذلك: أن الخلفاء كانوا لا يعقدون البيعة إلا بوجود كبار مشايخ الصوفية ومثال على ذلك أنه في بيعة الخليفة المستظهر بالله (487هـ/1078م) حضر الامام ابو حامد الغزالي (505هـ/1111م) وجماعة من المشايخ، حتى أنه بهر وتلجلج في الكلام؛ لما رأى هيبة وجمال صورة الخليفة المستظهر بالله(487-512هـ/1078-1118م) (ابن العمراني، 2001م، 189/1).

وكذلك الخليفة الناصر لدين الله (ت 575-622هـ/1180-1225م) عندما جلس للمبايعة، بدأ بأخوة وبني عمه وأقاربه، ثم الأعيان، فبايعه الأستاذ دار مجد الدين هبة الله ابن الصاحب، ثم شيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل، ثم فخر الدولة أبو المظفر بن المطلب، ثم قاضي القضاة على ابن الدامغاني، وصاحب ديوان الإنشاء أبو الفرج محمد ابن الأنباري، والحاجب أبو طالب يحيى بن زيادة(الذهبي، 2003م، 36/40).

المبحث الثاني

دورهم في المناصب الادارية التي تقلدوها

اولا- منصب مشيخة الشيوخ:

مشيخة الشيوخ وهي من المناصب الدينية ومهمتها النظر في امور المشيخات (المؤسسات) الاجتماعية والدينية، مثل: مشيخة الصوفية ومشيخة دور العلم ونحوها(ابن المستوفي، 1980م، 465/1).

أصبح للصوفية خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة ثقل في المجتمع، ولاسيما بعد دخول السلاجقة بغداد سنة(447هـ/1055م)، ومن ثم قويت علاقاتهم بالدولة الاسلامية فاعتمدت عليهم الخلافة ليكونوا حلقة وصل بينهم وبين العامة لذا استحدثت منصبا اداريا جديدا وهو منصب مشيخة الشيوخ ويعد من اهم المناصب الإدارية(ابن الاثير، 1997م، 314/8) وكان متوليه على صلة مباشرة بالخلفاء والسلاطين والامراء واصحاب المناصب النافذة فيها(الذهبي، 2003م، 258/32).

ويتقلد شيوخه عدة مهام منها: الاشراف على سائر الربط ببغداد، كما ويكون مسؤولا في ادارة بعض الامور السياسية والاجتماعية وفيما يأتي ما يدل على ذلك:

كان اول من تولى هذا المنصب هو الشيخ ابو سعد النيسابوري الصوفي، (ت 479هـ/1087م) (ابن الجوزي، 1992م، 235/16).

الذي كان ممثلا عن الصوفية في بغداد، وتولى مشيخة الرباط الذي عرف باسمه ويعد ثاني أقدم رباط في بغداد بعد رباط الزوزني، ويقع الرباط بنهر المعلى، وقد تولى ابو سعد بناء وقوفه(الذهبي، 2003م، ج32، ص259).

وكان قبل ذلك الشيخ ابو سعد يتولى وقوف المدرسة النظامية، فضلا عن أنه جدد تربة (مقبرة) معروف الكرخي بعد أن احترقت بأمر من الخليفة(الذهبي، 2003م، 260/22).

وكان الشيخ ابو سعد الصوفي ذا همة عالية كثير التعصب لأصحابه وله مكانة كبيرة عند الخليفة والسلطان(الذهبي، 2003م، 260/32).

وكان من عادة الوافدين الى بغداد من كبار الشيوخ والفقهاء الصوفية يستضافون في رباط شيخ الشيوخ ومنهم من يستقر به ومنهم من يعود على سبيل المثال: عندما قدم ابو نصر عبد الرحيم ابن الاستاذ ابي القاسم القشيري الذي قدم بغداد سنة(469هـ/1076م) وجلس للوعظ في المدرسة النظامية ثم عاد لبلده(ابن الاثير، 1997م، 450/8).

ومن الذين استقروا في الرباط احمد بن علي بن الحسين ابو بكر الطرثيثي المعروف بابن زهراء المقرئ (ت 497هـ-1103م) الذي تتلمذ على يد ابي سعيد بن ابي الخير الميهني شيخ الصوفية بخراسان، وكان هو مؤذن الرباط (ابن الجوزي، 1992م، 138/9-139)، وكان محدثا مشهورا(ابن الاثير، 1997م، 76/9).

ومن المهام التي تولاها الشيوخ الذين شغلوا هذا المنصب هو التدخل في حل بعض المسائل التي تشكل على الخليفة في حل النزاعات ومنها: مسألة تزوير قاضي القضاة ابي الحسن الدامغاني على اخته، فتولى شيخ الشيوخ ابو سعد الصوفي التحقيق في الامر وكشف الحقيقة، وكتب بها للخليفة للنظر فيها(ابن شاهنشاه، (د.ت)، ص117).

وكذلك كان رباط شيخ الشيوخ ملاذا لمن استجار به من ارباب المناصب والامراء، ومن سلطة شيخ الشيوخ أنه كان يتخذ اجراءات بحقهم او يعفو عنهم فيصدر الامر من الديوان بموافقته مثال ذلك: ((إن أستاذ الدار حسن للخليفة عزل ابن زيادة والقبض عليه فبلغه ذلك فخرج هاربا فنزل في رباط شيخ الشيوخ وسأل أن يتصدق عليه بنفسه وأن يؤذن له بالمضي إلى واسط فأذن له في ذلك فمضى إلى واسط ولزم داره)) (ابن خلدون، 1979م، 651/3).

ومن دورهم ايضا التدخل في اوقات الفتن والصراعات بين رجال الدولة ففي سنة(569هـ/ 1173م) كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين قايماز والخليفة، وسببها أن الخليفة أمر بإعادة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء إلى الوزارة، فمنع منه قطب الدين، وأغلق باب النوبي وباب العامة، وبقيت دار الخليفة كالمحاصرة، فأجاب الخليفة إلى ترك وزارته، فقال قطب الدين:((لا أقنع إلا بإخراج عضد الدين من بغداد..، فالتجأ إلى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل، فأخذه إلى رباطه وأجاره، ونقله إلى دار الوزير بقطفتا، فأقام بها، ثم عاد إلى بيته في جمادى الآخرة(ابن خلدون، 1979م، 651/3).

وكذلك كان من صلاحيات شيخ الشيوخ اعفاء القادة من الخروج الى القتال، ومن ذلك أنه عندما جاء الامر لنقيب النقباء بالخروج الى السلطان سنجر تقدم الى شيخ الشيوخ ودفع مبلغا قدره خمسة عشر ألف دينار ليعفى(ابن الجوزي، 1992م، 249/17).

ثانيا– دورهم في ادارة الربط الصوفية:

انشئت الربط والزوايا والخوانق في حدود الاربعمئة من الهجرة للصوفية ليقيموا بها اورادهم واذكارهم وكل ما اصطلحوا عليه من الاوضاع والرسوم، وتولى متصوفة خراسان العديد من هذه الربط التي انشئت في بغداد بمبادرات فردية من قبل الصوفية انفسهم، واخرى انشأها الخلفاء والسلاطين السلاجقة وخدمهم وارباب الدولة واهلوهم، وقد كانت هذه الربط يوقف عليها الوقوف ويتولى ادارتها شيوخ اجلاء وفدوا الى بغداد(ابن الجوزي، 1992م، 249/17).

ومن الملاحظ خلال تلك المدة هو توارث مشيخات بعض الربط حيث ينحصر تولي ادارتها في ابناء شيخ واحد او اقربائه مثل: رباط شيخ الشيوخ الذي انحصرت ادارته بالشيخ ابي سعد الصوفي وابنائه واحفاده (ابن المستوفي، 1980م، 17/2).

ولم يقتصر الامر على ذلك وإنما كانت في تلك الربط مكتبات موقوفة يتولى ادارتها المشايخ انفسهم وكانوا يديرون حلقات العلم ويقسمون اوقاتها مثال ذلك: ما قاله ابن الجوزي أنه سمع الحديث برباط بهروز على شيخ الرباط ابي نصر احمد بن منصور الهمذاني الصوفي(ت 536هـ/1141م) (ابن الجوزي، 1992م، 99/10).

ومن ابرز الربط التي تولى ادارتها مشايخ من خراسان هي:

1) رباط الزوزني[2] (السمعاني، 1962م، 320/6)

وهو من أقدم الربط الصوفية التي بنيت في بغداد وهناك ما يشير أنه كان موجودا سنة (412هـ-1021م) فقد ذكره الخطيب البغدادي دون ذكر اسم الرباط إذ قال: ((رباط الصوفية الذي عند جامع المنصور)) (الذهبي، 2003م، 289/38)[3] .

ويعود هذا الرباط في الاصل الى الشيخ الصوفي ابي الحسن علي بن ابراهيم الحصري (ت 371هـ/981م) (ابن الجوزي، 1992م، 285/14)، إلا أنه عرف برباط الزوزني، والزوزني صاحبه الذي اضيف اليه الرباط وهو ابو الحسن علي بن محمود بن إبراهيم بن ماخرة (ت 451هـ/1059م): فنسب إليه (ابن الجوزي، 1992م، ص16-59).

وكان إماما عالما فاضلا رأسا في علم التصوف، روى عن أبي عبد الرحمن السلمي، وصار شيخ الصوفية، وتولى ادارة الرباط الواقع مقابل جامع المنصور، وكان يقول: ((صحبت ألف شيخ أحدهم الحصري، أحفظ عن كل شيخ حكاية)) (ابن تغري بردي، (د.ت)، 269/5).

وكان ينزل هذا الرباط العديد من المشايخ الوافدين منهم:

الشيخ الإمام الزاهد العابد الصادق أبو القاسم يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد المهرواني الهمذاني (ت 468هـ/1075م) (الذهبي، 2003م، 457/13).

وبعد الزوزني تعاقب على ادارة مشيخة الرباط عدد من شيوخ الصوفية منهم: الشيخ أبو الوفاء أحمد بن علي بن إبراهيم الشيرازي(ت 528هـ/1133م)، الامام المحدث، القدوة، الزاهد، قدم بغداد وسمع من: أبي طاهر الباقلاني، وأبي الحسن الهكاري شيخ الإسلام، وخدم المشايخ، وسكن بالرباط المذكور (رباط الزوزني) (ابن الجوزي، 1992م، 285/17).

([2]) **الزوزني**: بسكون الواو بين الزايين المعجمتين وفي آخرها النون، هذه النسبة إلى زوزن وهي بلدة كبيرة حسنة بين هراة ونيسابور، وكان بعض الكبراء قال: زوزن هي البصرة الصغرى؛ لكثرة فضلائها وعلمائها. قيل: إن إمارتها تعدل إمارة مدينة كبيرة بخراسان، وكذلك القضاء بها، وحدودها متصلة بحدود البوزجان، ومن الناحية الأخرى بقهستان. (السمعاني، 1962م، 320/6)

([3]) وهو الجامع الذي بناه الخليفة ابو جعفر المنصور، وزاد عليه في التوسعة والبناء الخلفاء العباسيون فاصبح من اكبر واهم المساجد في بغداد. (الذهبي، 2003م، 289/38)

وكانت أخلاقه لطيفة، وكلامه مستحلى، كان يحفظ من سير الصالحين وأخبارهم، وأشعارهم الكثير، وكان على طرائقهم (ابن تغري بردي، د.ت، 253/5).

وعندما توفي صلى عليه من الغد بجامع المنصور خلق كثير، منهم أرباب الدولة، وقاضي القضاة، ودفن على باب الرباط، وعمل له، دعوة عظيمة أنفق فيها مال بين جامع المنصور والرباط على عادة الصوفية إذا مات لهم ميت، فاجتمع من المتصوفة والجند والعوام خلق كثير(الذهبي، 2003م، 161/36).

ثم تولى ادارة الرباط عدد من الشيوخ الذين حمدت سيرتهم منهم: ابو جعفر عمر بن ابراهيم التركستاني (ت 602هـ/1205م) (ابن الساعي، (د.ت)، ص184-185)، والشيخ الشهاب السهروردي (ت 632هـ/1234م) (الخطيب البغدادي، 1997م، 111/5-112)[4] ، وعلى ما يبدو أن الخلافة كانت تتولى تعيين وعزل الشيوخ.

رباط البسطامي:

وهو الرباط الذي ينسب للشيخ ابي الحسن علي بن احمد البسطامي (ت 493هـ/1099م): وقد عرف هذا الرباط باسم الذي بناه قبل ذلك وهو ابي الغنائم بن المحلبان، كان البسطامي يتولى خدمة الصوفية فيه وروى به الحديث فعرف باسمه، وتولى ادارته، يقع هذا الرباط في الجانب الغربي من بغداد، على شاطئ دجلة (ابن الجوزي، 1992م، 57/17).

وبعد البسطامي تولى ادارة الرباط ثلاثة شيوخ من عائلة واحدة من مشايخ خراسان وهم: طاهر بن سعيد بن ابي سعيد بن ابي الخير تولى مشيخة رباط البسطامي، وكان مقدما في الصوفية، كان ظاهر الوقار والسكون والهيأة والصمت (ت 542هـ/1147م) ودفن في مقبرة الجنيد وقعدوا للعزاء به فنفذ إليهم من الديوان من أقامهم(ابن الجوزي، 1992م، 59/18).

ثم حفيده عبد المنعم بن محمد بن طاهر (ت 565هـ/1169م) من بيت التصوف هو وأبوه وجده وسلفه وكلهم مشهورون بين أهل الطريقة ويقال هذا اسمه المفضل، سمع أباه وحجة الاسلام الغزالي وأبا الفتح عبيد الله بن محمد ابن أرشدي وغيرهم، واستوطن بغداد وخدم الفقراء برباط البسطامي سمع منه ابناه محمد وأحمد وعلي بن أحمد الربيب وإبراهيم الشعار وأحمد بن هبة الله الزاهد(الخطيب البغدادي، 1997م، 277/15).

([4]) **شهاب الدين ابو حفص عمر السهروردي:** من اعلام التصوف واحد علماء اهل السنة ومؤسس الطريقة السهروردية، الشيخ الامام القدوة الزاهد العارف المحدث شيخ الاسلام اوحد الصوفية، انتهت اليه الرياسة في تربية المريدين، وهو صاحب كتاب عوارف المعارف(الخطيب البغدادي، 1997م، 111/5-112).

ثم الركن محمد بن عبد المنعم (ت 596هـ/1199م) (ابن كثير، 1986م، 158/12)، ومن ثم جاء الشيخ ابو الشهاب السهروردي ليتولى ادارة الرباط ومعه ربط أخرى(ابن الجوزي، 1992م، 57/17).

رباط عتاب:

وهو الرباط الذي كان يتولى ادارته الشيخ عبد الرزاق الغزنوي(ابن الجوزي، 1992م، 57/17) الصوفي (ت 493هـ/1099م) حج مرات على التجريد، مات وله نحو مئة سنة، ولم يترك كفنا، وقد قالت له امرأته لما احتضر: سنفتضح اليوم. قال: لم؟ قالت له: لأنه لا يوجد لك كفن، فقال لها: لو تركت كفنا لافتضحت، وعكسه أبو الحسن البسطامي شيخ رباط ابن المحلبان، كان لا يلبس إلا الصوف شتاء وصيفا، وكان يحترم ويقصد، فخلف مالا مدفونا يزيد على أربعة آلاف دينار، وكان عبد الرزاق على ما ذكرنا فتعجب الناس من تفاوت حاليهما وكلاهما شيخ رباط (ابن كثير، 1986م، 195/12).

رباط بهروز:

وهو الرباط الذي بناه مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الخادم الابيض الغياثي (ت 540هـ/1145م) مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملك شاه(ابن المستوفي، 1980م، 13/2)، تولى الامارة بالعراق نيفا وثلاثين سنة(ابن الاثير، 1997م، 574/8) وكان يشغل منصب شحنة بغداد(الذهبي، 2003م، 36/7) فبنى رباطا للصوفية قرب المدرسة النظامية ووقف عليه وقوفا جيدة فعرف باسمه(ابن الجوزي، 1992م، 260/9).

تولى ادارة هذا الرباط الشيخ أحمد بن منصور بن أحمد، أبو نصر الصوفي الهمذاني(ت 536هـ/1141م)، كان شيخا حسن الصورة مليح الشيبة لطيف الخلقة مائلا إلى أهل الحديث والسنة، كثير التهجد لتلاوة القرآن، وأملى بجامع المنصور زيادة على ثلاثمئة مجلس(ابن الجوزي، 1992م، 22/18).

قال ابن الجوزي: ((سمعت عليه الحديث في رباط بهروز الخادم، وكان شيخ الرباط فأوصى أن يحضر شيخنا أبو محمد المقرئ غسله ويصلي عليه فشق ذلك على أصحاب الشافعي، وكانت وفاته يوم الجمعة ثامن عشر رمضان عن سبع وتسعين سنة ممتعا بسمعه وبصره، ودفن بالشونيزية في صفة الجنيد)) (ابن الجوزي، 1992م، 23/18).

وممن جلس فيه ووعظ ايضا الشيخ ابو الفتوح احمد الغزالي (ت 520هـ/1126م) (ابن المستوفي، 1980م، 34/1).

المبحث الثالث

تأثيرهم في الحياة الاجتماعية

اولا- تأثيرهم على طبقات المجتمع.

لقد كان التصوف بصورة عامة بمثابة البوتقة الاجتماعية التي انصهرت فيها مختلف الفروقات الاجتماعية والاقتصادية والعرقية والجغرافية، وكان عامل وحدة وتماسك في بنية المجتمع، فكان لشيوخ التصوف الوافدين من خراسان خلال القرنين الخامس والسادس دور مهم في الحياة الاجتماعية ببغداد بالتأثير على طبقات المجتمع كافة، من خلال النصح والارشاد والدعوة الى الزهد في الدنيا والابتعاد عن ملذاتها، فقبل ذلك كان الصوفية يعيشون مرحلة تشبه العزلة الاجتماعية، إذ كان لهم جماعات خاصة ذات اعداد قليلة، وكان لهم حلقات خاصة في المساجد(القشيري، 2009م، 573/2).

ولم تكن عباراتهم وألفاظهم ومصطلحاتهم مفهومة لدى عامة الناس، ولم ينخرطوا في اعمال رسمية بل على العكس كان اذا كان احدهم يشغل منصبا رسميا، اعتزل واتجه نحو الخلوة والمجاهدة، كما فعل ابو بكر الشبلي(ت 334هـ/945م) (السلمي، 2003م، ص257) وغيره من شيوخ التصوف من اصحاب المناصب الذين تركوا الدنيا وتزهدوا(ابن الجوزي، 1992م، 126/13).

ومما يدل على انعزال شيوخ التصوف قبيل القرن الخامس للهجرة هو قول الامام الجنيد البغدادي (ت 297هـ/909م) حين قال لابي بكر الشبلي ما نصه: ((نحن حبرنا هذا العلم تحبيرا ثم خبأناها في السراديب، فجئت انت فأظهرته على رؤوس الملا)) (ابن الجوزي، 1992م، 50/14).

وإن دل كلام الجنيد على شيء فإنما يدل على أن علوم الصوفية كانت مقصورة على اهله ولذلك لم يكن مفهوما عند عامة الناس، فقلت الرغبة في هذا العلم ونفرت القلوب منه فذهب العلم واهله الى أن صار الجهال علماء والعلماء اذلاء وكثر ادعياء التصوف وادخل عليه ما ليس منه(الكلاباذي، 2000م، 20/1)، فأظهر الفقهاء انتقاداتهم لعامة الصوفية واستمر العداء بينهم الى أن برز علماء من مشايخ الصوفية امثال: الكلاباذي، والقشيري ومن بعدهم الامام الغزالي ليخففوا من حدة هذا التعصب تجاه الصوفية ويبينوا طريقتهم واعتقاداتهم في رسائل وكتب مهدت

Vol 12, Issue 39, Feb 2025
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

فيما بعد الى تصوف علماء وفقهاء المسلمين فضلا عن عامة الناس(القشيري، 2009م، 15/1)، لكون التصوف علم يجمع بين الحقيقة والشريعة، وفي ذلك قال الامام الغزالي: ((من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان)) (الكلاباذي، 2000م، 25/1).

فبرز دور متصوفة خراسان في نشر التصوف وسلوكياته المبنية على الورع والتقوى والزهد ولاسيما بعد النصف الاول من القرن الخامس للهجرة من خلال رحلاتهم الى بغداد وجلوسهم للوعظ واجتماع الناس عليهم وتأثيرهم المباشر عليهم.

وفي القرن السادس للهجرة وبعد ان أدركت السلطة أن تيار التصوف أصبح تيارا شعبيا وله ابلغ الاثر في المجتمع ولا يمكن اغفاله قامت بتبنيه ودعمه لمواجهة التحديات التي كانت تواجهها من التيارات المناوئة والفرق الهدامة للإسلام ، فقامت بدعم التصوف ببناء الربط والوقوف عليها، وفيما يأتي أبرز الامثلة على دورهم في التأثير على مختلف طبقات المجتمع:

اولا- طبقة الخاصة:

وهي طبقة الخلفاء ورجال الدولة البارزين، مثل: الوزراء والحجاب والقضاة والاشراف والمقربين من الكتاب(الصابي، 1986م، ص56)، الذين كان من دورهم أنهم شاركوا في بناء الربط والانفاق على المجتمع بإيقاف الوقوف على الربط وبناء المدارس:

كان لمتصوفة خراسان دور كبير في التأثير على الخلفاء العباسيين بدعوتهم الى الزهد في متاع الحياة الفانية وطلب ما عند الله من ثواب الاخرة فكانوا كثيرا ما يحضرون مجالس الصوفية وينفذون ما يسمعونه من المواعظ والنصائح ويتبركون بهم وبآرائهم مما يدفعهم في رفع المظالم عن العامة من الناس وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الملك(الذهبي، 2003م، 8/37)

إن الخليفة القادر بالله (381-422هـ/991-1031م) كان يحضر مجالس اهل الخير ومنهم الشيخ ابن القزويني وغيره (ت 442هـ/991م) وكان يلبس زي العوام ويأكل من طعامهم ويتبرك بهم وكان يقصد الاماكن المعروفة بالبركة مثل: قبر معروف الكرخي ، فضلا عن أنه كان يطلب الطعام من ابن القزويني للتبرك ويرسل لهم الارزاق الدارة وينفق عليهم(ابن الجوزي، 1992م، 192/16)

وكان للدور الذي قام به شيوخ التصوف أثر بارز في مراعاة المجتمع والانفاق عليهم فقد كان الخليفة المقتدر بالله يقوم في كل رمضان بتقسيم افطاره على ثلاثة اقسام، فقسم يتركه بين يديه، وقسم يحمل إلى جامع الرصافة، وقسم إلى جامع المدينة، فيفرق على المجاورين، وكان يراعي الفقراء والمحتاجين(ابن الجوزي، 1992م، 192/16)

ولم يقتصر الامر على ذلك فقد استعان الخليفة القادر بالله على اظهار المعتقد القادري بحضور شيوخ التصوف فقرئ وحضره العلماء والزهاد، وحضر أبو الحسن علي بن عمر القزويني الزاهد، وكتب بخطه قبل الفقهاء: ((هذا اعتقاد المسلمين، ومن خالفه فقد خالف وفسق وكفر، وهو: يجب على الإنسان أن يعلم أن الله وحده لا شريك له)) (الذهبي، 2003م، 322/29).

ومن الخلفاء الذين تأثروا بشيوخ التصوف الخليفة القائم بأمر الله(422-467هـ/991-1074م) كان حليما، كريما، خيرا يحب الخير وأهله، ويأمر به، وينهى عن الشر ويبغض أهله، وكان حسن الاعتقاد، صنف فيه كتابا على مذهب السنة، وكان يخرج من داره في زي العامة ويزور قبور الصالحين، مثل: قبر معروف الكرخي وغيره، وإذا وصل إليه حال أمر فيه بالحق(ابن الجوزي، 1992م، 745/7).

كان الخليفة القائم بأمر الله(422-467هـ/991-1074م) على معرفة وثيقة بشيخ الشيوخ ابي سعيد احمد بن محمد بن دوست النيسابوري الصوفي شيخ خراسان بعد أن قدم الى بغداد فخصص له الخليفة القائم موضعا ليبني فيه الرباط الذي عرف باسمه، وهو من كلفه بإعادة بناء تربة معروف الكرخي بعد أن احترقت في فتنة البساسيري (ابن الجوزي، 1992م، 235/16)[5] ، وكان لهذا الرباط دور كبير في الحياة الاجتماعية فقد كان لهذا الرباط الوقوف الكثيرة التي من شأنها أن جعلت الكثير من الناس وطلاب العلم فضلا عن الوافدين يلجؤون اليه(ابن الاثير، 1997م، 681/8).

وكذلك كان الخليفة المسترشد بالله (512-529هـ/1118-1134م) على علاقة وثيقة بشيوخ التصوف فقد ذكر أنه كان يحضر مجالس ابي الفتوح الإسفراييني التي كان يعقدها في رباط شيخ الشيوخ وفي المدرسة النظامية، وكان يحضر مجالسه وقد سلم له ادارة مشيخة رباط الارجوانية والدة الخليفة المقتفي بأمر الله (ابن الاثير، 1997م، 681/8).

وكان لشيوخ التصوف دور كبير في حرب المسترشد بالله ضد المخالفين للقانون الذين كان لهم أثر بالغ في زعزعة المجتمع البغدادي، ومن أبرزهم: دبيس بن صدقة (512-529هـ/1119-1132م) (ابن العمراني، 2001م، ص207)[6] الذي تمكن الخليفة المسترشد

([5]) ابو الحارث ارسلان بن عبد الله البساسيري، الملقب بالمظفر، وهو مملوك من اصل تركي تدرج بالمناصب حتى اصبح حاكما عسكريا واصبح له شأن استمالة الخليفة الفاطمي ضد الخلافة العباسية واحدث فتنة كبيرة واستولى على بغداد لمدة عام إلا أنه واجه السلاجقة وقتل على ايديهم) (ابن الجوزي، 1992م، 235/16)

([6]) ابو الحسن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الاسدي، حاكم الحلة المزيدية وامير بادية العراق خلال المدة (512-529هـ، ص1119-1132م(ابن العمراني، 2001م، ص207)

بالله من كسره ودحر اعماله التخريبية التي دامت حقبة من الزمن وقد استقرت الخلافة في عهده بلا منازع مما ادى الى استقرار في الاوضاع الاجتماعية (الذهبي، 2003م، 561/19)

وقد ذكر الذهبي: أن الخليفة المسترشد بالله (512-529هـ/1118-1134م) كان من العلماء ((وله خط بديع، ونثر صنيع، ونظم جيد، مع دين ورأي وشهامة وشجاعة، وكان خليقا للإمامة، قليل النظير، كان يتنسك في اول زمنه، ويلبس الصوف، ويتعبد، وختم القرآن، وتفقه، ولم يكن من الخلفاء من كتب أحسن منه، وكان يستدرك على كتابه، ويصلح أغاليط في كتبهم)) (الذهبي، 2003م، 561/19)، وفي عهد الخليفة المسترشد بالله، بدأت حركة اليقظة الشعبية العامة في بغداد(الصلابي، 2006 م، ص160).

ولم يكن المقتفي بأمر الله (530-555هـ/1135-1160م) بعيدا عن شيوخ التصوف ودورهم في النصح والارشاد والتأثير عليه في اتخاذ القرارات التي من شأنها تؤثر على المجتمع البغدادي فقد كان الخليفة على علاقة وثيقة بالشيخ المظفر بن اردشير العبادي الواعظ (ت 546هـ) الذي كان له دور في جعل الخليفة يأمر بإراقة الخمور وازالة المنكرات(ابن الاثير، 1997م، 182/9)

وكان لشيوخ التصوف دور كبير مع الخليفة الناصر لدين الله (575-622هـ/1179-1225م) ويتبين ذلك برعايته لهم بشكل كبير فقد بنى لهم الربط واستمع لنصحهم وتبرك بهم، وبنى دور الضيافة والمساجد ما يتجاوز الحد الكثير، ومن شدة تأثره بالتصوف فقد هم بترك الخلافة والانقطاع للعبادة وبنى رباطا للفقراء واتخذ جانب الرباط دارا لنفسه كان يتردد اليها ويحاضر الصوفية، وعمل ثيابا كثيرة بزي الصوفية، وكان على صلة وثيقة بشيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل ابي سعد الصوفي (ت 580هـ/1184م) (الذهبي، 2003م، 349/39).

وتأثر ايضا بالشيخ الزاهد محمد البلخي (ت 589هـ/1193م) فقد كان الخليفة الناصر يزوره ويتردد اليه، وبنى له رباطا وسأله أن يدخله فأبى.

إن علاقة شيوخ التصوف الخراسانيين بالخلفاء وتأثيرهم عليهم كان له دور كبير في دعم مفاصل الحياة الاجتماعية في بغداد بإزالة المكوس وازالة المنكرات والحث على العدل بين الرعية(الذهبي، 2003م، 296/35).

ولم يقتصر الامر على الخلفاء وإنما كان الكثير من نساء الخلفاء وامهاتهم ممن تأثرن بشيوخ التصوف وكان لهن دور اجتماعي عن طريق مساعدة المجتمع والانفاق على الفقراء والاكثار من اعمال البر ومن ذلك بناء المدارس والربط وايقاف الوقوف عليهن، وما يدل على دور متصوفة خراسان في ذلك نجد أن الكثير من هؤلاء الشيوخ يجلسون للوعظ والتدريس في تلك الربط والمدارس ومن بينهم الشيخ ابو الفتوح الإسفراييني المعروف بابن المعتمد (ت 538هـ/1143م)

الذي جلس في رباط ام الخليفة المقتدي بأمر الله (467-487هـ/1075-1094م)، وقد سمي هذا الرباط برباط ابي الفتوح الإسفراييني (ابن الجوزي، 1992م، 111/10).

وقد تعاقب على مشيخة هذا الرباط عدد من الشيوخ الوافدين من خراسان الى بغداد منهم الشيخ الحافظ يوسف بن احمد الشيرازي(ت 585هـ/1189) (ابن الفوطي، 1996م، 460/4).

ومن نساء الخلفاء ايضا عصمة خاتون زوج الخليفة المستظهر بالله(487-512هـ/1094-1118م) التي كانت كثيرة الخير والإنفاق على الفقراء وأسهمت في الحياة الاجتماعية، وكان للشيخ ابي الحسن الغزنوي علي بن الحسين (ت 551هـ/1156م) (ابن الجوزي، 1992م، 166/10)، دور كبير في نصحها وكان له عندها جاه كبير فبنت له رباط بعد قدومه الى بغداد سنة(516هـ/1122م) واوقفت عليه الوقوف، وكان يرد هذا الرباط الكثير من الاعاجم القادمين من خراسان من المريدين والمتصوفة(الذهبي، 2003م، 60/38-61).

وقال ابن كثير: ((كان له قبول كثير من العامة، وبنت له الخاتون زوجة المستظهر رباطا بباب الأزج(السمعاني، 1962م، 180/1)[7] ، ووقفت عليه أوقاف كثيرة، وحصل له جاه عريض وزاره السلطان، وكان حسن الإيراد مليح الوعظ، يحضر مجلسه خلق كثير وجم غفير من أصناف الناس)) (ابن كثير، 1986م، 234/12). ومنهن ايضا الجهة المعظمة بنفشا (ت 598هـ/1201م) جارية الخليفة المستضيء(الذهبي، 2003م، 342/42)، التي أسهمت مساهمة فاعلة في المجتمع البغدادي حيث وقفت مدرسة بباب الأزج، وعمرت عدة مساجد، وكانت كثيرة الرغبة في أفعال البر(الصفدي، 2000م، ج10، ص184)، وكان لمتصوفة خراسان دور في ذلك فقد ذكر ابن الجوزي أنها بنت رباطا للنساء الصوفيات سنة (573هـ/1177م) وافردته لأخت شيخ رباط الزوزني (الذهبي، 2003م، 342/42).

وبنت ايضا مدرسة كبيرة لتدريس المذهب الحنبلي عرفت باسمها واوكلت ادارتها الى ابن الجوزي (ابن الجوزي، 1992م، 271/10)، وبنت قنطرة على نهر عيسى في الجانب الغربي من بغداد (ابن الساعي، (د.ت)، ص115).

وأمرت ببناء جسر الى جوار قصرها ، يربط بين جانب الكرخ والرصافة لتسهيل مرور الناس، وكانت تقدم السكن والطعام للنساء المتصوفات في رباطها ، فضلا عن مشاركتها العامة في الاعياد والمناسبات ففي عيد الفطر اخرجت زكاة فطرها صاعا من ذهب وفرقته على الفقراء، واعتقت الكثير من الجواري والمماليك (ابن الجوزي، 1992م، 252/10-253).

([7]) وهي محلة كبيرة ببغداد، قيل: كان بها اربعة آلاف طاحونة، وكان منها جماعة كثيرة من العلماء والزهاد والصالحين وكلهم إلا ما شاء الله على مذهب احمد بن حنبل (رحمه الله) (السمعاني، 1962م، 180/1)

ومن أبرز الوزراء الذين تأثروا بمشايخ خراسان وكان لهم دور هو الوزير شرف الدولة علي بن الحسن بن علي بن صدقة (ت 554هـ/1159م):

كان عزيز الفضل وافر العقل، له معرفة تامة باللغة، حسن الخط مليحه، دين خير مشغول بالعبادة والعزلة، سمع السمعاني بمكة والمدينة وبغداد وقرأ على المشايخ(الحموي، 1993م، 1689/4).

وتأثر بشيوخ التصوف وبنى الرباط المعروف برباط الدرجة على دجلة بالجانب الغربي واعتزل فيه مع جماعة من الفقراء وترك الولايات إلى أن مات(الصفدي، 2000م، 193/20).

وهو صاحب الخط المليح المنسوب على طريقة علي بن هلال بن البواب كتب بخطه الكثير من كتب الأدب ودواوين الشعر ولي النظر بديوان واسط(الصفدي، 2000م، 193/20).

وايضا الوزير ابن هبيرة يحيى بن محمد بن هبيرة، أبو المظفر الوزير للخلافة عون الدين (ت، 562هـ/1166م) (الذهبي، 2003م، 328/38).

كان احد العلماء، قرأ القرآن وسمع الحديث، وكانت له معرفة جيدة بالنحو واللغة والعروض، وتفقه على مذهب الإمام أحمد، وصنف كتبا جيدة مفيدة، من ذلك الإفصاح في مجلدات، شرح فيه الحديث وتكلم على مذاهب العلماء، وكان على مذهب السلف في الاعتقاد، وقد كان فقيرا لا مال له، ثم تعرض للخدمة إلى أن وزر للمقتفي ثم لابنه المستنجد، وكان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة، وأبعدهم عن الظلم، وكان لا يلبس الحرير(ابن العمراني، 2001م، 225/1) وكان المقتفي يقول: ما وزر لبني العباس مثله، وكذلك ابنه المستنجد، وكان المستنجد معجبا به، وقد كان يبالغ في إقامة الدولة العباسية، وحسم مادة الملوك السلجوقية عنهم بكل ممكن، حتى استقرت الخلافة في العراق كله، ليس للملوك معهم حكم بالكلية ولله الحمد (ابن خلكان، 1994م، 242/6).

وكان يعقد في داره للعلماء مجلسا للمناظرة يبحثون فيه ويناظرون عنده، يستفيد منهم ويستفيدون منه وبنى مدرسة بباب البصرة(ابن الاثير، 1997م، 311/12)

وقد شرح صحيحي البخاري ومسلم في عدة مجلدات، وسماه كتاب ((الإفصاح عن معاني الصحاح))، وألف كتاب((العبادات)) في مذهب أحمد، وأرجوزة في المقصور والممدود، وأخرى في علم الخط، واختصر ((إصلاح المنطق)) لابن السكيت (الذهبي، 2003م، 333/38).

صحب أبا عبد الله محمد بن يحيى الزبيدي الواعظ الزاهد من حداثته، وكمل عليه فنونا من العلوم الأدبية وغيرها، وأخذ عنه التأله والعبادة، وانتفع بصحبته (ابن العماد، 1986م، 316/6).

ومنهم ابو المظفر بن الوزير هبة الله فخر الدولة ابن المطلب (ت 578هـ/1182م) الذي تصوف في زمن الصبا وبنى مدرسة ورباطا ببغداد عند عقد المصطنع (ابن الاثير، 1997م،

118/10)، وبنى رباطا للنساء غربي بغداد واوقف ضياعه واملاكه جميعا على ما بناه من مدارس وربط وجوامع (الصفدي، 2000م، 181/12).

الخاتمة:

1- تمتعت خراسان منذ الفتح العربي الإسلامي بأهمية سياسية ودينية كبيرة، وكان لاستقرار العرب المسلمين في خراسان بعد الفتح العربي الإسلامي أثر بارز في تكوين المجتمع الإسلامي، ولاسيما أن أعدادا كبيرة من الصحابة وعلماء المسلمين استوطنوا فيها فنشروا الدين الإسلامي والعلوم الإسلامية فضلا عن اللغة العربية، مما أدى إلى تلاقح حضاري متميز.

2- إن للتصوف أكثر من معنى واشتقاق وكل تعريف يحمل تفسيرا مختلفا عن الآخر، وهو مشتق من الصوف؛ لكونه لباس الأنبياء والأولياء والصالحين، ومهما اختلف في تعريفه فهو يصل في النهاية إلى صدق التوجه إلى الله .

3- بدأت ملامح التصوف من صدر الإسلام في حياة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) كحالة من الزهد والعبادة، وأن نشأة التصوف نشأة عربية إسلامية بحتة تستمد أصولها من القرآن والسنة النبوية الشريفة .

4- كانت نشأة التصوف في العراق أولا، وأول من عرف باسم الصوفي هو أبو هاشم الصوفي في الكوفة ، ثم انتقل إلى خراسان في حدود القرن الثاني للهجرة.

5- اختلط التصوف في بلاد خراسان بالكثير من المؤثرات الخارجية، فهذه البلاد الشاسعة لم تعرف الإسلام كما عرفه العرب على وجهه المثالي.

6- كان للتصوف الإسلامي الصحيح مكانة كبيرة في خراسان وكان من أوائل الزهاد الذين ظهروا في خراسان: أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي، وقيل: التميمي الخراساني البلخي (ت 161هـ/778م).

7- تطور الزهد ولم يعد فرديا بل أصبح حركة منتظمة عرفت باسم التصوف، وفي خراسان انتقل مركز التصوف من بلخ أقدم مركز للتصوف في خراسان إلى نيسابور، وفي تلك الحقبة قام التصوف على أساسين رئيسين هما: الملامة) و(الفتوة) وهما أكثر المصطلحات جريانا على ألسنة أهل هذه الفرقتين.

قائمة المصادر والمراجع:

Reference:

- القرآن الكريم

1. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير. (1997). الكامل في التاريخ. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي. بيروت.
2. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. (1992). المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت.
3. ابن الساعي. نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء. تحقيق: مصطفى جواد. دار المعارف. مصر. (د.ت).
4. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح .(1986). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. تحقيق: محمود الأرناؤوط. دار ابن كثير. بيروت.
5. ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد. (2001). الأنباء في تاريخ الخلفاء. تحقيق: قاسم السامرائي. دار الآفاق. القاهرة.
6. ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد. (1416هـ). مجمع الآداب في معجم الألقاب. تحقيق: محمد الكاظم. مؤسسة الطباعة والنشر. وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي. إيران.
7. ابن المستوفي، المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإربلي، المعروف بابن المستوفي. (1980). تاريخ أربل. تحقيق: سامي بن سيد خماس الصقار. وزارة الثقافة والإعلام. دار الرشيد للنشر. العراق.
8. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي (د.ت). النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دار الكتب. مصر.
9. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي.(1979) . تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. مؤسسة جمال للطباعة والنشر. بيروت.
10. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر. (1992). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر. بيروت.
11. ابن شاهنشاه، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب الملك المؤيد صاحب حماة. (د.ت). المختصر في أخبار البشر. المطبعة الحسينية المصرية. مصر.

12. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. (1986). البداية والنهاية. دار الفكر. بيروت.

13. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي. (1417هـ) تاريخ بغداد وذيوله العلمية (دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا). دار الكتب العلمية، بيروت.

14. الذهبي. (2003). تاريخ الإسلام. تحقيق: بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

15. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس. (2002) .الأعلام. ط.15. دار العلم للملايين. بيروت.

16. السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي. (1992). طبقات الشافعية الكبرى تحقيق: عبد الفتاح الحلو، ومحمود محمد الطناحي. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. الجيزة.

17. السلمي، أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب. (2003). طبقات الصوفية. تحقيق: عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت.

18. السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور. (1962). الأنساب. تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وآخرون. مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدر آباد.

19. الصابي، أبو الحسين هلال بن المحسن. (1986). رسوم دار الخلافة. تحقيق: ميخائيل عواد. دار الرائد العربي. بيروت.

20. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله. (2000). الوافي بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. دار إحياء التراث. بيروت.

21. الصلابي، علي محمد. (2006). دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي. مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة. القاهرة.

22. الطوسي، نظام الملك. (2007). سياسة نامة المعروف بـ (سير الملوك). ترجمة: يوسف بكار. دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت.

23. عماد الدين الأصبهاني، محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين حامد بن أله. (1987). البرق الشامي. تحقيق: د. فالح حسين. مؤسسة عبد الحميد شومان. الأردن.

24. القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن. (2009). الرسالة القشيرية. شركة القدس للتجارة. القاهرة.

25. القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي. (د.ت). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. دار الكتب العلمية. بيروت.

26. الكلاباذي، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق. (1400هـ). التعرف لمذهب أهل التصوف. دار الكتب العلمية. بيروت.

27.ياقوت الحموي. (1993). معجم الأدباء (إرشاد الأريب في معرفة الأديب). تحقيق: إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

ترجمة قائمة المصادر والمراجع:

1. Al-Dhahabi. (2003). Tarikh al-Islam (Bashar Awad Ma'ruf, Ed.). Dar al-Gharb al-Islami, Beirut.
2. Al-Kalabadhi, Abu Bakr Muhammad ibn Abi Ishaq. (1400 AH). Al-Ta'aruf li Madhhab Ahl al-Tasawwuf. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut.
3. Al-Khatib al-Baghdadi, Abu Bakr Ahmad ibn Ali ibn Thabit ibn Ahmad ibn Mahdi al-Khatib al-Baghdadi. (1417 AH). Tarikh Baghdad wa Dhuyulihi al-Ilmiyyah (Mustafa Abd al-Qadir Ata, Ed.). Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut.
4. Al-Qalqashandi, Ahmad ibn Ali ibn Ahmad al-Fazari al-Qalqashandi then al-Qahiri. (n.d.). Subh al-A'sha fi Sina'at al-Insha'. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut.
5. Al-Qushayri, Abu al-Qasim Abd al-Karim ibn Hawazin. (2009). Al-Risala al-Qushayriyya. Al-Quds Trading Company, Cairo.
6. Al-Sabi, Abu al-Husayn Hilal ibn al-Muhsin. (1986). Rasum Dar al-Khilafa (Mikhail Awad, Ed.). Dar al-Ra'id al-Arabi, Beirut.
7. Al-Safadi, Salah al-Din Khalil ibn Aybak ibn Abdullah. (2000). Al-Wafi bi al-Wafayat (Ahmad al-Arnaout & Turki Mustafa, Eds.). Dar Ihya' al-Turath, Beirut.
8. Al-Salabi, Ali Muhammad. (2006). Dawlat al-Salajiqa wa Buruz Mashru' Islami li Muqawamat al-Taghallul al-Batini wa al-Ghazw al-Salibi. Iqra' Publishing, Distribution, and Translation, Cairo.
9. Al-Sam'ani, Abu Saad Abd al-Karim ibn Muhammad ibn Mansur. (1962). Al-Ansab (Abd al-Rahman ibn Yahya al-Mu'allimi al-Yamani et al., Eds.). The Board of Ottoman Knowledge Circle, Hyderabad.
10. Al-Subki, Taj al-Din Abu Nasr Abd al-Wahhab ibn Ali ibn Abd al-Kafi. (1992). Tabaqat al-Shafi'iyyah al-Kubra (Abd al-Fattah al-Hilu & Mahmoud Muhammad al-Tanahi, Eds.). Dar Hijr for Printing, Publishing, and Distribution, Giza.
11. Al-Sulami, Abu Abd al-Rahman Abdullah ibn Habib. (2003). Tabaqat al-Sufiyyah (Abd al-Qadir Ata, Ed.). Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut.
12. Al-Tusi, Nizam al-Mulk. (2007). Siyasat Nama known as Siyar al-Muluk (Yusuf Bakkar, Trans.). Dar al-Manahil for Printing, Publishing, and Distribution, Beirut.
13. Al-Zarkali, Khayr al-Din ibn Mahmoud ibn Muhammad ibn Ali ibn Faris, al-Zarkali al-Dimashqi. (2002). Al-A'lam (15th ed.). Dar al-Ilm Lilmalayin, Beirut.
14. Ibn al-Athir, Abu al-Hasan Ali ibn Abi al-Karam Muhammad ibn Muhammad ibn Abd al-Karim ibn Abd al-Wahid al-Shaybani al-Jazari, Izz al-Din Ibn al-Athir. (1997). Al-Kamil fi al-Tarikh (Omar Abd al-Salam Tadmuri, Ed.). Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut.
15. Ibn al-Futi, Kamal al-Din Abu al-Fadl Abd al-Razzaq ibn Ahmad. (1416 AH). Majma' al-Adab fi Mu'jam al-Alqab (Muhammad al-Kadhim, Ed.). Ministry of Culture and Islamic Guidance, Iran.

16. Ibn al-Imad al-Hanbali, Abd al-Hayy ibn Ahmad ibn Muhammad Ibn al-Imad al-Akri al-Hanbali, Abu al-Falah. (1986). Shadharat al-Dhahab fi Akhbar man Dhahab (Mahmoud al-Arnaout, Ed.; Abdul-Qadir al-Arnaout, Hadith Checker). Dar Ibn Kathir, Beirut.

17. Ibn al-Jawzi, Jamal al-Din Abu al-Faraj Abd al-Rahman ibn Ali ibn Muhammad al-Jawzi. (1992). Al-Muntazam fi Tarikh al-Umam wa al-Muluk (Muhammad Abd al-Qadir Ata & Mustafa Abd al-Qadir Ata, Eds.). Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut.

18. Ibn al-Mustawfi, Mubarak ibn Ahmad ibn Mubarak ibn Wahb al-Lakhmi al-Irbili, known as Ibn al-Mustawfi. (1980). Tarikh Arbil (Sami bin Sayed Khumas al-Saqar, Ed.). Ministry of Culture and Information, Dar al-Rashid Publishing, Iraq.

19. Ibn al-Sa'i. Nisa' al-Khulafa' al-Musamma Jihat al-A'imma al-Khulafa' min al-Hara'ir wa al-Imma' (Mustafa Jawad, Ed.). Dar al-Ma'arif, Egypt, n.d.

20. Ibn al-Umrani, Muhammad ibn Ali ibn Muhammad. (2001). Al-Anba' fi Tarikh al-Khulafa' (Qasim al-Samarra'i, Ed.). Dar al-Afaq, Cairo.

21. Ibn Kathir, Abu al-Fida Isma'il ibn Umar ibn Kathir al-Qurashi al-Basri, then al-Dimashqi. (1986). Al-Bidaya wa al-Nihaya. Dar al-Fikr, Beirut.

22. Ibn Khaldun, Abd al-Rahman ibn Muhammad al-Hadrami. (1979). Tarikh Ibn Khaldun: al-Ibar wa Diwan al-Mubtada' wa al-Khabar fi Ayyam al-Arab wa al-Ajam wa al-Barbar wa man A'sarahum min Dhu al-Sultan al-Akbar. Jamal Publishing House, Beirut.

23. Ibn Khallikan, Abu al-Abbas Shams al-Din Ahmad ibn Muhammad ibn Ibrahim ibn Abi Bakr. (1994). Wafayat al-A'yan wa Anba' Abna' al-Zaman (Ihsan Abbas, Ed.). Dar Sader, Beirut.

24. Ibn Shahanshah, Abu al-Fida Imad al-Din Isma'il ibn Ali ibn Mahmoud ibn Muhammad ibn Omar ibn Shahanshah ibn Ayyub, al-Malik al-Mu'ayyad, Lord of Hama. (n.d.). Al-Mukhtasar fi Akhbar al-Bashar. Al-Matba'a al-Husayniyya al-Misriyya, Egypt.

25. Ibn Taghribirdi, Abu al-Mahasin Jamal al-Din Yusuf ibn Taghribirdi ibn Abdullah al-Zahiri al-Hanafi. (n.d.). Al-Nujum al-Zahira fi Tarikh Misr wa al-Qahira. Ministry of Culture and National Guidance, Dar al-Kutub, Egypt.

26. Imad al-Din al-Isfahani, Muhammad ibn Muhammad Safi al-Din ibn Nafis al-Din Hamid ibn A'lah, Abu Abdullah. (1987). Al-Barq al-Shami (Faleh Hussein, Ed.). Abdul Hameed Shoman Foundation, Jordan.

27. Yaqut al-Hamawi. (1993). Mu'jam al-Udaba' (Irshad al-Arib fi Ma'rifat al-Adib) (Ihsan Abbas, Ed.). Dar al-Gharb al-Islami, Beirut.

Vol 12, Issue 39, Feb 2025
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X